

عبقريّة ابن الرومى

فرغنا فى الفصل السابق من حياة ابن الرومى لتكلم فى هذا الفصل عن عبقريته وهى زبدة حياته والغرض الذى من أجله عاش ومن أجله يكتب الكاتبون عنه . فما تحرك فى حياته حركة إلا كان لعبقريته منها نصيب أوفى نصيب . حتى لكأنه كان لا يتحرك ولا يتنفس ولا يطعم ولا يشعر إلا ليتخذ من ذلك كله مادة حياة ويترجم ما عمل وما علم فى قالب الفن ترجمة البر الأمين ، وصفوة القول فى هذه العبقرية أنها كانت عبقرية يونانية لولا الإفراط أو الانهماك ، أو أنها كانت عبقرية يونانية مكبرة الجوانب بعض التكبير .

ولسنا نصفها هذا الوصف لأنه يفسر سهل لهذه العبقرية النادرة ولكن لأنه وصف موجز يدل على أجزائها المختلفة بقليل من الكلمات .

فربما كان القول بأن ابن الرومى رجل حساس متوفز الأعصاب ملهى المزاج نشأ فى حضارة زاهية فأجابته وأجابها وأخذت منه وأخذ منها فنبغ على ذلك المثال الفريد لأنه لا بد فى الشعر من مثال فريد - ربما كان هذا أقل فى العجب من تفسير عبقريته بأنها عبقرية يونانية على اعتبار أنها موروثه عن آبائه اليونان . . إذ من هم أبائهم اليونان ! لا ندرى أهم من إغريق الجزر أم من إغريق البلاد المعروفة باسم اليونان أم من إغريق آسيا الصغرى التى كانت تدور الحرب فيها وحولها بين المسلمين ودولة الروم . ومن الصعب الذى يحتاج إلى التفسير أن نقول أن هؤلاء الإغريق جميعاً سليقة واحدة وأمة واحدة وعنصر واحد ينحدر منه الرجل وينتقل إلى بيئة أخرى وينجب الأبناء فى بيئته الجديدة فيجتمع فيهم كل ما تفرق من خصائص العبقرية الفنية التى تسمى الآن بالعبقرية اليونانية .

ثم نحن لا نعلم أن الإغريق فى قديم عهدهم كانوا عنصراً واحداً ينتمى

إلى سلالة واحدة، لأن امتزاج الأنساب بينهم وبين الآسيويين ثابت لا شك فيه واقتباسهم من عقائد الآسيويين وفنونهم ولغاتهم ثابت كذلك أقطع ثبوت. ولا يمكن أن نجزن برأى فى وراثـة الفـطرة الفـنية ولا سيما الفـطرة فى الشعب كله حتى لو عرفنا الأصل الذى تحدر منه ابن الرومى بين أصول اليونان الكثيرة. فقد كان فى بلاد اليونان نفسها ألوف من أبناء الشعب اليونانى المحاطين بالبيئة اليونانية فى جميع ظواهرها وبواطنها فلم ينبغ منهم فى عصر ابن الرومى شاعر مثله ولا نبغ منهم فى العصور السابقة التى ازدهرت فيها آدابهم وفنونهم شاعر من طرازه فى جميع خصائصه وملكاته. فلو أننا نقلنا ابن الرومى من الأدب العربى إلى الأدب اليونانى لكان فذاً فى أدبهم كما كان فذاً فى أدبنا، ولم تنقض الحاجة إلى تفسيره بهذه النقلة من أدب لغته إلى أدب أصله، ولو أننا بحثنا عن مزية أصيلة فى الفطرة اليونانية تنتقل مع الدم وتسرى فى خلال التكوين لأعيانا أولاً أن نحصر هذه الفطرة ثم أعيانا بعد ذلك أن نحصر هذه المزية.

فنحن لا نفسر عبقرية الشاعر حين نسميها بالعبقرية اليونانية، ولكننا نصفها فى كلمات موجزة وصفاً يقربها إلى الأذهان ويطبعها بهذا الطابع المعروف عند المطلعين على الآداب. وما من شك فى أن الشعر الذى تحدر من أصل يونانى أيا كان مقره غير الشاعر الذى تحدر من أصل عربى أيا كان مقره. ولكن التفريق بين هذين الشاعرين شىء والقول أن الشاعر لا يحس هذا الإحساس ولا ينظم هذا النظم إلا إذا كان من أبناء اليونان شىء آخر. فحسبنا أننا نعرف ما نريد حين نذكر العبقرية اليونانية ولا نحالو بعد ذلك الخروج إلى تحليل الأصول والتعسف فى تقسيم خصائص الشعوب.

وإنما وصفنا ابن الرومى بهذه الصفة لأنه صاحب عبقرية تعبد الحياة، وتحيا مع الطبيعة، وتلتقط الصور والأشكال، وتشخص المعانى، وتقدم الجمال على الخير أو لا تحب الخير إلا لأنه لون من ألوان الجمال، ثم هى تنظر إلى

الدنيا نزرتها إلى المعرض المنصوب للتملى والمتعة لا نظرتها إلى الحصن المغلق أو الصومعة الموحشة أو غير ذلك من نظرات الأجيال والأديان، ولا نعرف صفة أجمع لهذه الخصال كلها من صفة العبقريّة اليونانية التي اتسمت بها فى الجملة فنون الإغريق، فقد كان الإغريق بجملتهم كما كان ابن الرومى بمفرده، لولا أن الإغريق كانوا يصيبون من أكل متعة بمقدار وابن الرومى كان لا يعرف فى أمر من الأمور مقداراً أقل من الإفراط والانهماك.

عبادة الحياة

ولنتظر أولاً إلى حب الحياة الذى كان أول ما اشتهر به اليونان وأول من نستشفه من فن هذه العبقريّة الحية فى كل جزء من الأجزاء وكل حالة من الحالات. فابن الرومى كان من أخلص محبى الحياة بين محبيها الكثيرين، أو كان على الأصح الأوضح من مدمنى الحياة بين شرابها غير المدمنين.

وحب الحياة خليفة نادرة وإن ظن أنها أعم شىء بين الناس وعامة الأحياء. فليس الحب - سواء حب حياة أو حب شىء من أشياءها - سهلاً رخيصاً يطمع فيه كل من يريد. فمن الناس من يحب الحياة كأنه مسوق إلى حبها، ومنهم من يحبها كأنه مأجور على عمله، ومنهم من يحبها كأنما يحب شيئاً غريباً عنه، ومنهم من يحبها كما (يحب) الحيوان الأعجم ما هو فيه، ومنهم من يحبها حب العاشق الذى يختار معشوقه أو يستوى عنده الحب على القسر والحب على المشيئة لأنه يريد ما يقسر عليه ويأبى أن يفرض للفراق وجوداً أو يتوقع لهواه تغييراً، فهو سعيد بأن يحب وأن يسمح له بأن يحب، وهو يحب الحياة لأنه حى لا موت فيه ولا عمل لكل حاسة فى نفسه إلا أن يحس وتحيا وتستجد إحساساً وحياة ولا تشبع من الإحساس والحياة، وهكذا كان ابن الرومى يعبد الحياة عبادة لا يبتغى عليها أجراً غير ما يبتغيه خلص العابدين. فكان حياً كله لا مكان فيه للموت إلا الخوف منه والتفكير فيه.

وإنك لتتابع أبياته الكثيرة فى هذا الغزل أو فى هذه الفتنة أو فى هذا

السكر فيخيل إليك أنه شارب قبض على الكأس يود أن يجرعها مرة واحدة من فرط التعطش والخوف عليها لولا أنه يستعذبها ويستطيبها فيترشف منها رشفة بعد رشفة ويعود إليها ينظر ما فرغ منها وما بقى فيها، ويضن ويشتاق ويشعر بمرارة الفقد لفرط شعوره بحلاوة المتعة، فما نقصت من تلك الكأس - الحياة - قطرة إلا أحس بطبيها وأحس بألم فقدها وعرف مقدارها وقاس من الكاس حيزها وعاد يترشف لينسى فيزداد ذكراً على ذكر وخسارة بعد خسارة. وأي ذكر؟ وأي خسارة؟ وأي ألم؟ وأي فجیعة؟

لعمرك ما الحياة لكل حي إذا فقد الشباب سوى عذاب فقل لبنات دهرى فلتصبنى إذا ولى بأسهمها الصياب ومن هذه اللهفة بعد اللهفة تعرف كيف بلغ العشرين وكيف بلغ الثلاثين وكيف بلغ الخمسين وكيف بلغ الستين فى قصائد شتى ومناسبات عدة لا موضع هنا لإحصائها ولكنها تذلل إذا راجعتها عليمقالاته بهذه الوديعة وضنه بتسليمها والتفريط فيها وحرصه على ذخيرتها حرص الشحيح الذى يود أن يزيد فى ماله المحسوب وهو يراه ينقص ساعة بعد ساعة ولمحة بعد لمحة.

وهو إذا ذكر الشباب لم تكن صورة الشباب فى ذهنه أنه فترة من الزمن، أو ظاهر من المتعة والعافية، وإنما يذكره وهو ينفذ إلى صميمه وباطنه ولبابه الذى لا يحسب بالأيام ولا معول فيه إلا على جدة الشعور وجلاء الدنيا فى بشاشتها الأولى كأنها الثمرة المقطوفة ولها من الشمس صبغة جديدة ومن الطل مسحة غضة ومن العصر المكنوز وليمة تنادى الشهوة وتفتح اللهوة.

فلا يعنيه أن يدوم له الشباب وإنما يعنيه أن تدوم له الدنيا القديمة وهى فى جدة البواكير وفى طرافة المفاجأة التى لا تزال. وإلا فما يغنيه أن يدوم الشباب والدنيا أمامه مذالة المنظر مجرودة اللون مسلوبة من تلك المفاجأة فى كل نظرة وفى كل لقاء:

لو يدوم الشباب مدة عمرى لم تدم لى بشاشة الأوطار
أجل . هذا هو الشباب فى صميمه وباطنه ولبابه . والشباب عنده أيضاً
أن يستقبل الحياة لأنها لا تكون جديدة إلا بهذا الاستقبال .
أطالع ما أمامى بابتهاج ولا أقفو المولى باكتئاب
والشباب عندن هو الحياة ، لا فرق بين فقده وفقد الحياة إلا أن فاقده
الشباب يعلم بموته وفاقده الحياة لا يعلم ولا يأسى على ما فات .
وفقد الشباب الموت يوجد طعمه صراحاً ، وطعم الموت بالموت يفقد
والشباب عنده مفقود لا عزاء بعده إلا عزاء الموت القريب .
فما لى عزاء عن شبابى علمته سوى أنى من بعد لا أخلد
وأن مشيى واعد بلحاقه وإن قال قوم أنه يتوعد
والشباب عنده مبكى لا يوفى البكاء إلا بالدم .
لا تلح من يبكى شبيبته إلا إذا لم يبكهــــــــــــــــا بدم
ومرثى لا ينقطع رثاؤه حتى الممات :
سأئننى بآلاء الشبيبة باسطاً لسانى بها حتى أحين فاقبضاً
والخير الأكبر هو أن يحيا الإنسان ، والشر الأكبر هو أن يموت ، ولا
سيئة عنده لهذا الخير العقيم ألا تنغيص ذلك الشر العقيم .
سواء للحياة وللموت حتم ولبذل الزمان واسترداده
وكل ما فى الحياة من قلة الغبطة أن الأحياء يموتون :
كيف العزاء فى العيش مغتبط ولا اغتباط لأقوام يموتونا
متى تعش قبلى الأحياء يدركنا وأن نمت قبلى الأموات يعفونا
وعلى هذا النحو يقول :

رأيت حياة المرء رهناً بموته وصحته رهناً كذلك بالسقم
إذا طاب لى عيش تنغصت طيبه يصدق يقينى أن سيذهب كالحلم
ومن كان فى عيش يراعى زواله فذلك فى بؤس وإن كان فى نعم

فالخلود الخلود! لا شىء دون الخلود يرضيه ويستقر عليه مناه، وإلا فبنو
الحياة بائسون محرومون لأنهم لا يعيشون لا لأنهم يعيشون كما يقول
المتشائمون الذين لا يحبون هذا الحب ولا يعبدون هذه العبادة ولا يحسون هذا
الإحساس. ما تكلمنا بالمجاز حين قلنا أنه يعبد الحياة لأنه - على ما فى
شعره من هذه الأبيات المفرقة فس شتى القصائد - قد كان يعلم ويقول أن
للحياة ديناً يحرم ويحلل ويأمر ويطاع ولو عارض أوامر الدين:

شربت وقد كان الشباب محللاً لى الراح ما كان الكتاب محرماً
وقد طابق التشيب الكتاب فحرمت على فىك تحريمين إن كنت مسلماً
وذكر المحرمات فى قصيدة أخرى فقال:

لم تحلل لمن أتاها ولكن لم يحل لدونها من الشيب حام
وأتى الآن دونها فهى اليو م حرام على كل الحرام
سوائى أن أطعت شيبى فيما لم أطع فيه حاكم الحكام
وعظ الله والكتاب فصمم ت وأقدمت أيما إقدام
ونهى الشيب بعد ذاك فأسد مت وأحجمت أيما إحجام
فقد كان يدين فى خواجه بهذا الدين ويستوحى منه شريعة التحليل
والتحريم، وتهم خواطره بالتبتل فيثنيه عن هذا التبتل الذى لا نسكت دعوته
ولا ينقطع رسوله:

ابى لأخى الدنيا التبتل أنها لها زيفة فى كل حين تزيفها
إذا ما جلاها فى الرياض ربيعها يروق عيون الناظرين رفيفها

وأخرى إذا ما أينعت ثمراتها ورقت حواشيها وطاب خريفها
تراءى لنا فى زخرفين كلاهما إذا استوحف الأهواء طال وحيفها
وقد كان همه الأكبر أن يحيا لأنه مهياً النفس للإحساس بالحياة، ولو
كان همه على ما به من الخصاصة واللهفة أن يطلب القوت وينصرف إلى
ذرائع العيش لما كان بالملوم.

وتعلق ابن الرومى بالحياة أقل شىء غرابة وأقرب إلى طبيعة الأمور.
نعم إنه كان سقيم الجسم عسير الرزق مخيب الآمال فكان أحرى لذلك أن
يغض الحياة أو يحبها حب المجبر الملول، إلا أن المرء لا يحب الحياة على
مقدار سعادته بها واستجابة آماله فيها، كما أن المرء لا يحب المرأة على مقدار
ما ينال من حظوتها ويغنى من إقبالها، بل يحب هذه أو تلك كلما امتلأت بها
نفسه واشتغل بها حسه واستبكت بها ذكرياته وامتزجت بها رغباته، وابن
الرومى كان صاحب نفس لا توصف إلا بأنها أداة مهيأة للنظر والسمع
والتلقى عن الوجود من حيثما ألقى إليه بأثر من آثاره وخبر من أخياره دق أو
جل وأسعد أو أشقى.

العين لا تنفك من نظر والقلب لا ينفك من وطر

ومن أبهر ما يبهرك فى هذه اليقظة الحسية حاسة اللون الذاكية المتوهجة
التي تطالعك من كل وصف يصف به الوجوه أو الأزهار أو الكؤوس أو الحلوى
أو الخمر أو غير هذه المناظر التي تلامس البصر بألوانها فإنك قل أن ترى فى
وصف شاعر من شعراء العالم أجمع نظيراً لهذه الحاسة الشفافة المتوفرة التي
تختلج لكل لمحة من لمحات اللون وكل شعاع من أشعة النور وتفتن إلى
الطف ما يبيده للعين من محاسن الامتزاج والمقابلة وأصفى ما يجلوه من
دقائق المبانيّة والمشاكلة. فيصيح صيحة الوهل حين يرى الوجنة الحمراء إلى
جانب الصدغ الأدعج:

يا وجنتيه اللتين من وهج فى صدغيه اللذين من دعج
ما حمرة فيكما أمن خجل؟ أم صبغة الله؟ أم دم المهج؟
ويصبح هذه الصيحة كلما رأى هذا المنظر:

ليت شعري أسحر عينيك داء الـ
 قلب أم نار خدك الوهاج
 ويقول في مثل هذا المعنى:

تلقى جنى التفاح فى وجناته وترى جنى العناب فى تطريفه
متعت منه مسامعى ومراشفى بنشير لؤلؤة وماء رصيفه
ويصف قينة فلا يكاد يعرض من مناظرها لغير الألوان التى فى وجهها
وثابها:

وقينة أن منحت رؤيتها
شمس من الحسن في معصرة
في وجنات تحمر من خجل
ويقول في ساقية

بنت كرم يديرها ذات كرم
حصرم من زيرجد، بين نع
فوق ليات غادة تترك الخا
تحمل الكأس والحلى فتبدو
وفي قينة:

موقد النحر مثمر الأعتاب
من يواقيت جمرها غير خاب
لى فى كل صبوة وهو صاب
فتنة الناظرين والشراب

وشرابنا وردية
لكنوسها شرر يطير

حمراء في يد أحمر الو
جنات ملثمة مهير

وفى مثلها:

إذا هي قاست فى الشفوف أضاءها سناها فشفت عن سبيكة سابك

وفى قيان مجتمعات:

لابسات من الشفوف لبوسها كالهواء الرقيق أو كالسراب

ومن الجـوهر المضىء سناه شعلا يلتهبـن أى التهاب

وليس ألطف من قوله فى وصف الأعناب السود:

سود لهن من الظلماء ألوان

وفى العنب الأبيض:

لم يبق منه وهج الحـرور إلا ضياء فى ظروف نور

أما الخمر فربما كان نصيب عينه من نشوتها أجمل لديه وأحب إليه من نصيب السكر عند الشارين - إذ تراه لا يصف سكرها كما يصف ألوانها وألوان أقداحها بل هو يكاد يحسبها لونًا شائعًا فى الفضاء كما قال:

صفراء تتحل الزجاجة لونها فتخال البتر حشو أديمها

لطفت فقد كادت تكون مشاعة فى الجو مثل شعاعها ونسيمها

وكما قال فى موضع آخر:

نضا الدهر عن أسارها جل لونها فغادرها من لونها فى غلائل

ثوث تصطلى شمس الظهائر برهة إلى أن أفادت لون شمس الأصائل

وهكذا يقول فى الرياض:

توقد فيها كلما تلمح الضحى كواكب يذكو نورها حين تشمس

أو فى الشقائق التى هى:

تترف لأبصار كلحن بها ليرين كيف عجائب الحكم
شعل تزيدم فى النهار سنى وتضىء فى محاولك الظلم
أعجب بها شعلا على فحم لم تشتعل فى ذلك الفحم
وهكذا يقول فى كل شىء .

وليست حاسة البصر متفردة بهذه القوة بين حواس ابن الرومى ولاحظها
من الذكاء والتفر بأوفر من حظ غيرها، فإن الرجل كان يسمع ويشم ويذوق
ويتلمس كما كان يبصر ويتصور، فلا تقصر حاسة من حواسه عن أختها ولا
تشكو إحداهن كلالاً أو فتوراً فى حصتها من التمييز والشعور، وهو القائل
فى وصف صوت:

صوت ندى وأنفاس مساعدة كأنما نفس منهن أنفاس
بظل سامعه لدنا مفاصله كأنما فترت أوصاله الكاس
وفى وصف مغنية:

معد فى شأو صوتها نفس كا ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه وبراه الشجى فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيا مستلذ بسيطه النشيد
فيه وشى وفيه حلى من الـ نغم مصوغ يختال فيه القصيد

فكأنه قد بلغ فى تحسس الصوت مرتبة الموسقيين الذين يتمثلون للأنغام
أولواناً وزخارف وأوشية تكاد تنطبع فى صفحة الخيال أو تكاد تدركها العين
لشدة بروزها فى قراره الوجدان. وهو لا يدع لك أن تشرح أو تستخلص ما
تقرأه من كلامه حتى يقول لك بالعبرة الصريحة أنه يصل بين الرؤية والسمع
ويترجم بين الحاستين فينقل إلى لغة العيون ما تضمنته لغة الأذان. وإليك ما
يصف به إحدى القيان:

ذات صوت تهزه كيف شاءت مثلما هزت الصبا غصن بان
ينثنى فينفض الطل عنه وفي ثنيه مثل حب الجمان
ذلك الصوت في المسامع يحكى ذلك الغصن في العيون الروانى
ثم يستطرد إلى تمييز الأنعام فيقول:

جمهورى بلا جفاء على السم مع مشوب بغنة الغزلان
فيه بم وفيه زير من الذ غم وفيه مثالث ومثان
فتراه يجل في السمع حيناً وتراه يدق في الأحيان
رخمته ورقرقته وضاهى فعلها الأحمران والأسمران
فهو يحكى ترقرق النهى فى الر يح لعينى ذى يغلة صديان
بلج السمع مستمراً إلى القل ب بلا آذان ولا استئذان

وإنك إذا قرأت مدائحه الأخريات فى القيان المحسنات وأهاجيه فى
شنطف ودبس وأبى سليمان ومن لا يجيد هذه الصناعة من المغنين والمغنيات
علمت أنه له أذنًا واعية تهفو إلى السماع الجميل وتنفر من السماع القبيح،
وإذا قرأت مبتكراته فى فضائل الأزهار والرياحين ولذة الاستماع بروائحها
وتمييزه لمراتبها علمت أنه كان يستروح من جمال مشموماتها مثل ما كان
يستروح من جمال مناظرها، وإذا قرأت ما قال فى الموز الذى "يدفعه البلع
إلى القلوب" وفى الشمس الذى إذا رأيت بستانه "فأيقن بحق أنه لطيب"
وفى الدجاجة التى يلوح له "سميطة صفراء دينارية" والتى "يكاد أهابها
يتفطر". أو قرأت مقطوعاته فى القطائف والفطائر واللوزينج والحلوى التى
كان يقرطها ويفتن فى تشبيهها علمت كيف كان النهم بالمناظر والطعوم بابًا
عنده للنهم بالطعام، بل حسبك من دليل على شراهة حاسة الطعم عنده وقوة
التذاذه بها قوله أنه ما كان ليحفل بالموت أو ليجزع من القبر "لولا فواكه
أيلول...!"

وحاسة اللمس فى هذه الأداة الحسية اليقظى كحواس البصر والسمع
والشم والطعم فى الدقة والرفاهة والانتباه. فها هو ذا يصف الريح الشمالية:

وشمال باردة النسيم تشفى حرارات القلوب الهيم

.....

شاردة فى الليل بالنسيم بين نشير الروض والخيشوم

كأنها من جنة النعيم

وها هو ذا يصف الليل فى شهر أيلول:

يا حبذا ليل أيلول إذا بردت فيه مضاجها والليل سجواء

وجمش القر فيه الجلد فائتلف ت من الضجيعين أحشاء فأحشاء

أو ها هو ذا يصف البارد:

ألذ من معتق الرساطون وقهوتى فطر بل وكركين

رجرجة من ماء ليل تشرين كرونق الصيف اليمان المسنون

بات على طود نياف العرنين تتنفحها الريح برس ممنون

فى شطر كسوز صنع طب أفنون أخضر فى خضرة جرو اليقين

الست يا محرومها بمغبون

فها هنا تلمس معه برد الهواء الذى "يجمش" الجلود والأحشاء. بل ها
هنا يخيل إليك أن لبرد الماء فى "شطر الكوز" الأخضر ثقلاً راسباً ينقع الغلة
بالرجرجة قبل أن ينقعها بالشراب، وأن الشاعر ما اختار "معتق الرساطون"
من أسماء الخمر إلا لأنها كلمة مجسمة أشبه بالرصاص البارد الذى ترى
لاستقراره راحة كراحة الظمآن بعد الارتواء. ثم تعيد نظرك فى الأبيات
فتعجب ما هى الحاسة التى لم تشترك فى وصف هذه الأبيات؟! أهى حاسة

البصر وهى ترى للماء رونقًا كرونق السيف اليمان المسنون، وترى خضرة الكوز كأنه جرو اليقطين، وترى "شطر" الكوز فإذا هى صنع قادر صناع؟ أم هى حاسة السمع وهى تصغى إلى ررجرة الماء ونفح الريح؟ أم هى حاسة الرى وهو هنا نافع لا يبقى من الظمأ بقية كى الصدور؟ أم هى حاسة الخيال وهو يرتفع بالكوز إلى رأس الطود النياف العرنين ويشبع القلب بالخمير المجلوبة من قطربل وكركين؟ فأوجز ما يقال فى تصوير ابن الرومى لهذا الكوز أنه قد التهمه حسًا بكل ما فيه من منظور ومسموع ومشروب ومتخيل وملموس.

فهذه أيها القارئ نفس تامة الإدارة تشعر شعورًا شديدًا بالحياة من حيثما واجهتها وتداخل الطبيعة فى كل جزء من أجزائها. فقد عاش صاحبها يومًا يومًا من عمره. وناحية ناحية من وجدانه ولابس الحياة ولاسته.

ودامت الدنيا له غضة كأنها الجارية الناهد

وليس الأمر كله حسًا بالظواهر كذلك الحس الذى لا مذهب له وراء العيون والآذان والأنف، ولا هو بالدقة التى ترهف الحواس إرهافًا فلا يكون قصارها إلا أن تقابل بين المراثيات والمسموعات أو بين هذه وتلك وبين المشمومات والملبوسات .. كلا! فإن هذه اليقظة الحسية لتصاحبها يقظة فى الشعور الباطنى تسرى به فى كل مسرى وتنفذ به إلى كل منفذ وترجم العواطف والأخلاق كما تترجم المناظر والألحان، فإذا تتبع "المكر" فى خبايا الفكر فهو القائل فى ذلك قولاً لا يسبقه فيه شاعر:

لك مكر يدب فى القوم أخفى من ديب الغذاء فى الأعضاء
أو ديب الملل فى مستهام ين إلى غاية من البغضاء
أو مسير القضاء فى ظلم الغيب ب إلى قاصد له بالتواء
وإذا جال الحزن فى نفسه بلبث منه على الكون غشاوة ولاح له كأنما
نفخ فى الصور ودمر كل عامر.

وأظلمت الدنيا وباخ ضياؤها نهاراً وشمس الضحو حيرى على القمم
وأبدى اكتساباً كل شيء عملته وأضعاف ما أبداه من ذاك ما كتم
ثم عرف أنه هو الحزن الدخيل، وليست الدنيا البادية للعيان هي التي
يراها بتلك النظرة الشاحبة فقال:

كذلك أرى الأشياء إما حقيقة بدت لى وأما مستيقظ حلم
ولم يحلم اليقظان إلا وقد أتت على لبه دهياء هائلة القمم
وقد يتأمل المرأة فإذا هو محيط - فى بيت واحد - وبما " الأنوثة " كله،
وبما فى المرأة من ضعف وقوة، وبما هنالك من العجب فى أن تكون هذه
المخلوقة العجيبة إنساناً كالرجل وهى الرجل جسدان مختلفان وطبعان
متباينان، وأن تكون غريبة عنه وهى قرينة له ما عن مقارنتها محيص. وذلك
كله ملحوظ فى البيت الذى يقول فيه:

ومن عجائب ما يمنى الرجال به مستضعف لنا منهم أقران

ولا عجيبة هنا إلا العجيبة التى يحسها منم أحس سر الأنوثة وسر
الرجولة وأحاط بالتوفيق الغريب بين هذين الإنسانين حيث يفترقان وحيث
يلتقيان، واستوعب لغز " الجنس " ببديهة واسعة لم يحجبها عن ذلك اللغز أن
الجنسين أشيع ما يرى فى عالم الإنسان والحيوان.

وأما وقد ذكرنا المرأة ولغز الجنس المنوط بها، فقد يكون من الواجب أن
نعرف مقدار ما شغلته من هذه النفس وحركته من هذا الإحساس، فإذا كان
ابن الرومى عابداً للحياة، فالمرأة ولا يب كاهنة هذا المعبد التى تتم على يديها
مراسم العبادة، ومحورها الذى تلتف حوله الشعائر والقرايين، وإذا كان ابن
الرومى نفساً تيقظت فيها أداة الحس والشعور ففى المرأة ولا ريب تلتقى أشد
مغريات الحس وأعماق بواعث الشعور. ولا بد من شأن لهذه " المخلوقة " فى
حياة هذا الشاعر. فما هو هذا الشأن؟ وما حقيقته؟ وما مداه؟ وهل هو شأن

(المرأة) أو هو شأن (أمرأة) خاصة أو أكثر من امرأة خاصة؟ وهل عشق؟ وهل أحب؟ وهل عرف ما هو الحب الذى نعى به شيئاً أكثر من العشق وأكثر من الغرام؟؟

فأما هذا الشأن فقد كان ولا يعقل إلا أن يكون، وما فرغ ابن الرومى قط من شأن النساء ولا كره الشيخوخة إلا لأنها تصده عن المرأة أو تصد المرأة عنه، فلاجلها قبل كل شيء كان يخاف غائلة السن ولأجلها قبل كل شيء كان يتمنى خلود الشباب:

أخشى كسادى على النساء إذا أسند ننت والسن جمة الخبل
وإننى من كسادهن على سد نى لأولى بالخوف والوجل
ولأجلها كذلك تمنى أن تنعكس أيام العمر فيتقدم فيه الهرم ويتأخر فيه الشباب:

فالعيش طمعان عند ذائقه مر التوالى ستعذب الأول
ومن غسل تارة ومن صبر لهفى لتأخر عقبة العسل
لو أنها أخرت لطاب بها العي ش وأن جاوزت شفا الأجل
وفى وسعك أن تقول أنه عرف "العشق" الذى لا يعرفه إلا من نشبت
علائقه بامرأة واحدة دون سائر النساء، فوصف ما وجدته من هذا العشق فى
غير موضع وقال من ذلك:

قد كنت أبكى لأصحاب الهوى رمزاً فهل لى الآن من باك فيبكينى
أهكذا يجسد العشاق كلهم؟ يا رحمتا للمحبين المساكين!
وقال:

الحب داء عيىء لا دواء له تفضل فيه الأطباء النحارير
قد كنت أحسب أن العاشقين غلوا فى وصفه فإذا فى القوم تقصر

سقيًا لأيام لم أخبره تجربة إلا بما وصفت عنه الأخايير
بل جرب الغيرة فقال فى تهوينها على العاشق ما لا يقوله إلا غيور:
إذا خلة خانتك بالغيب عهدا فلا تجعل الحزن ضربة لازب
وهب أنها الدنيا التى أنت موقن بفرقتها إذا أنت فى شأن لاعب
فهو قد عشق وغار وكابد لوعة الرغبة التى يحصرها العشق فى إنسانة
واحدة بين سائر النساء وفارق وناجى وذكر وقال من ذلك فى معشوقة فارقها
على أمل اللقاء:

أعلى العهد أنت أم حلت عنه جعل الله قبل ذاك مماتى
لست أنسى امتناع صبرك للتوديع والبين مؤذن بشتات
إلا أن هذا كله عشق وليس فيه حب. وقد يكفى الإحساس والعاطفة
لإضرار العشق وإغرام المرء بامرأة يشتتها ويغار عليها ويشعر نحوها بذلك
الشعور الفطرى الذى ركب فى عامة الرجال وعامة النساء. أما الحب الذى
نعينه فلا يكفى فيه الإحساس والعاطفة ولا بد فيه من "الروحانية" أو الزهد
والتضحية ونكران الحياة ويقترن ذلك بالتصوف والارتفاع بالمرأة إلى ما فوق
مرتبتها فى الطبيعة وفوق حظها من محاسن الأجسام. إذ الطبيعة لا تعرف فى
المرأة إلا انها أنثى وكذلك العاشق، أما الحب فإنه قادر على أن يفيض من
روحانيته نوراً على ما يحب وأن يحفها بهالة علوية قد يهابها وقد يخشع لها
فى بعض المواقف خشوع المتسكين. ولم يكن لابن الرومى نصيب من هذه
الروحانية ولا من ذلك النور، فما كانت المرأة فى حسه أو عاطفته إلا أنثى
طبيعية ومخلوقاً جميلاً فيه متعة للأعين ومسرة للقلوب، وتساؤه كلهن نساء
المتعة والمسرة على نسق واحد يلخصه مثل هذا البيت:

حوراء فى وطف قنواء فى ذلف لقاء فى هيف عجزاء فى قبب

وهو فى هذا أيضًا وفى "للعبقريّة اليونانية" وللصورة التى رسمها اليونان للجمال "فينوس". فقد كان اليونان طبيعيين فى الجمال وطبيين فى العشق ولم يكونوا روحانيين فى شعر ولا فلسفة ولا تصوير، وخلاصة الحب عندهم أنه نسخة من حب "خلوى ودفنيس" فى غاية حفلت بالألوف منتسخ هذا الحب بين أزواج الطير والحیوان، فإذا تنزه فهو حب عصفور لعصفورة أو ظبى لظبية أو حیوان جميل لحیوانة جميلة، يخلو من الكشافة ويزدان بالخفة والرشاقة، ولكنه لا يخلو من "الجسدية" ولا من "الطبيعة" ولا يفارق الأرض لىصعد إلى سماء "الروحانية" والنور. وإذا تنزه بعد ذلك فهو صداقة حامية يشترك فيها الفكر والذوق والغريزة، ولا يفسح فيها مجال كبير للتزاهة والتقدیس.

حب الطبيعة

وننتقل من ذاك إلى الخاصة الأخرى من خواص الطبيعة اليونانية وهى حب الطبيعة.

فقد وصف الطبيعة شعراء كثيرون ولم يمنحها الحياة إلا قليلون! أما الذين منحوها حياة نجها وتحبنا ونعطف عليها وتعطف علينا وتناجيها وتناجينا فأقل من هؤلاء القليلين ..

وذاك أن الشاعر قد يؤخذ بأحمرها وأبيضها وأصفرها بذلك أن يمدح شيئاً قد يجد مثله فى ألوان الحلى وأصباغ الطنافس ونقوس الجدران، أو نحن نخطو وراء ذلك خطوة فنقول أنه لا يعدو بذلك أن ينظر إلى دمية فاتنة يروقه منها وجه مليح وقوام ممشوق وحسن مفاض على الجوارح والأوصال، ولكنه لا يتطلع مها إلى عطف ولا يفتش فيها عن طوية.

وقد يستريح الشاعر إلى الطبيعة لأنها ظل ظليل، ومهاد وثير، وهواء بليل، وراحة من عناء البيت وضجة المدينة، فلا يعدو بذلك أن يستريح إليها

كما تستريح كل بنية حية إلى الماء والظل والهواء - كذلك تهجع السائمة في المروج، وكذلك تهتف الضفدع في الليلة القمراء . .

وقد يمنحها الشاعر حياة من عنده أو من عند الخرافات والأساطير فإذا هي حياة بغیضة لا تصلح للتعاطف والمناجاة ولا يصدر عنها إلا الفزع والإحجام ولا تقوم بينه وبينها إلا الحواجز والعداوات.

أما الطبيعة التي تحب وتاجى ويتم التعاطف بين الشاعر وبينها عن ثروة غزيرة من الشعر والشعور فهي طبيعة الحور الخافقات في الهواء، والعرائس السابحات بين الأمواج، والعدارى الراقصات في عيد الربيع، والجنيات الهامسات في رفرقة النسيم ورققة الغدير وحنين الصدى وحفيف الأغصان، أو إن شئت فقل أنها هي الطبيعة العامرة بما في البروق والرعود والسموات والأعماق من بطولة وعظمة، ونضال جياش بالغضب الظافر، والسطوة المجيدة، والخطر المثير، والشجاعة التي تقدم ولا تحجم وترجو ولا تخاف، أو إن شئت فقل أنها هي الطبيعة التي تبث الإغراء، في كل شيء حتى ليحذر الملاح لجة البحار مخافة أن تستهويه بنات الماء من وراء زرقة الأمواج، فيثب إلى أحضانها وكأنما يثب إلى أحضان عروس طال بها عهد الغياب.

فعلى هذا النحو تنجلي الطبيعة للعبقريّة التي تحبها وتمنحها الحياة. فليست هي دمية ولا حلية، وليست هي مروحة شاملة ونفس تخف إليها وتأنس بها و"ذات" تساجلها العطف وتجاذبها المودة، ثم هي عمار لا خواء فيه وأسرة لا تبرح منها في حضرة قريب يناجيك وتناجيه ويعاطيك الإخلاص وتعاطيه.

وقد كان ابن الرومي يحب الطبيعة على هذا النحو ويستريح من محاسنها نفساً تسبى الناظر إليها وتتبرج له "تبرج الأنثى تصدت للذكر" ويرى وراء هذه الزينة التي تبدو على وجهها عاطفة من عواطف العشق تتعلق بها العفة والشهوة تعلقها بالعاطفة الإنسانية الشاعرة:

فهى فى زينة البغى ولكن هى فى عفة الحصان الرزان

ولا يقول هذا القول على سبيل الاستعارة اللفظية ولكنه يقوله ويصف الطبيعة الوصف الذى يقتضيه ذلك الشعور ويليهِ ذلك التصور، فيشف وصفه لها عن شغف الحى بالحى وشوق الصاحب إلى الصاحب، وتسمع من تشبيه بها رنة طرب أو شجو لا تخرج إلا من نفس مفعمة بأصداء الطبيعة قد نفذت إلى طويتها وشاركتها فيما تتخيله لها من حزن وسرور. فهو يحيا مع الشمس الغاربة حين تضع على الأرض "خدا أضرع" من دهشة الفراق، وهو يحيا مع النوار حين تخضل بالدمع عيونه وتهبط مع الليل شجونه، وهو يحيا مع الذباب المغرد والطيور الساجع فى ساعة الغروب التى يمتزج فيها الحنان الذائب بالشوق الخفيض، وهو ينتظم ذلك كله فى أنشودة واحدة لم تدع مزيداً لفن اللون والحركة ولا مزيداً لوى الخيال والسليقة:

إذا رنقت شمس الأصيل ونفضت	على الأفق الغربى ورسا مذعذها
وودعت الدنيا لتقضى نحبها	وشول باقى عمرها فشتشعا
ولاحظت النوار وهى مريضة	وقد وضعت حداً إلى الأرض أضرعاً
كما لاحظت عواده عين مدنف	توجع من أوصابه ما توجعاً
وظلت عيون النور تخضل بالندى	كما أغرورقت عين الشجى لتدمعاً
يراعينها صوراً إليها روائياً	ويلحظن الحاظاً من الشجو خشعاً
وبين أغضاء العراق عليهما	كأنهما خلا صفاء تودعاً
وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة	من الشمس فاخضر اخضرارا مشعشعا
وأذكى نسيم الروض ريعان ظله	وغنى مغنى الطير فيه فسجعاً
وغرد ربعى الذباب خلالاً	كما حثحث النشوان صنجاً مشرعاً

وهو يعرف الربيع حياة تتحرك فى الوحش والطير كما يعرفه زحرفاً
تتحلى به الأرض والسماء . لأنه وليمة الحياة للأحياء .

تجد الوحوش به كفايتها والطير فيه عتيدة الطعم
فظباؤه تضحى بمتطح وحمامة يضحى بمختضم
أن الربيع لكالشباب وأن الصي ف يكسعه لكالهمرم
وهو ينتشى مع الطيور والأغصان إذا بعث الشمال بتحتها و :

هبت سحيراً فناجى الغصن صاحبه مسوساً وتنادى الطير إعلانا
ورق تغنى على خضر مهدلة تسمو بها وتشم الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب والغصن من هزة عطفه نشوانا
وهو يستمع إلى الروضة فى بكائها وشدوها إذ هى :

يتداعى بها حمائم شتى كالبواكى وكالقيان الشواذى
من مثنان ممتعات قران وفرداد مفجعات وحاد
تتغنى القمران منهن فى الأ يك وتبكى الفراد شجو الفراد
وهو يفهم الشعر الذى لا ينشده صاحبه للأجر والصنعة :

لكن كما راقى القمرى جنه فظل يتبع تغريداً بتغريد
وهو يحسن الإصغاء إلى سر الحياة الكامنة فى هذه الأرض وينصت إلى
ما ييوح به الربيع فى نجواها إذا :

لم يبق للأرض من سر تكائه إلا وقد أظهرته بعد إخفاء
أبدت طرائف وشى من زواهرها حمرا وصفرا وكل نبت غبراء
وهو يشتهى جمال الطبيعة من كل جارحة فى نفسه إذا بدت للعين

برياض تخاليل الأرض فيها خيلاء الفتاة في الأبراد
 منظر معجب، تحية ألف ريحها ريح طيب الأولاد
 وقد بلغ من قوة هذا الإحساس فيه أن تجاوز حيز البديهة إلى حيز
 التفكير، كأنه التفت إلى نفسه فأدرك من طول المراقبة وتواتر الإحساس
 المتشابه علة أنسه بالطبيعة، وعلم أنه أنس مستمد مما يفيضه عليها من دلائل
 الحياة، فقال في أبيات يصف بها الأغصان:

تلاعبها أيدى الرياح إذا جرت فتسمو، وتحنو تارة فتتكس
 إذا ما أعارتها الصبا حركاتها أفادت بها أنس الحياة فتؤنس
 ولما شغف بالشباب ذلك الشغف المتوهج لم ينس معه الشغف بالطبيعة
 ولم يفرق بين ريعه وريبعها وبين ثمراته وثمراتها: بل خلع من شبابه عليها
 وخلع من شبابها عليه ومزج بينهما مزجاً لا تخاله يكون إلا في مهجة واحدة
 وجسد واحد. فإذا تذكر الشباب فأسمع ما هذا الذي يذكره بالشباب:

يذكرنى الشباب صدى طويل إلى برد الثنايا والرضاب
 وشح الخانيات عليه لا عن ابن شيبدة جون الغراب
 يذكرنى الشباب جنان عدن على جنبات أنهار عذاب
 تقيء ظلها نفحات ريح تهز متون أغصان رطاب
 إذا ماست ذوائبها تداعت بواكى الطير فيها بانتحاب
 يذكرنى الشباب رياض حزن ترنم بينها رزق الذباب
 إذا شمس الأصائل عارضتها وقد كربت توارى بالحجاب
 وألفت جنح مغربها شعاعا مريضاً مثل إلحاظ الكعاب
 يذكرنى الشباب سراة نهى نير الماء مطرد الحباب

قرته مزنة بكر وأضحى
 على حصباء فى أرض هجان
 له حبك إذا أطرت عليه
 تذكرنى الشباب صبا بليل
 أنت من بعدها ما أنسجت مليا
 وقد عبت بها ربا الخزامى
 يذكرنى الشباب وميض برق
 فى أسفا ويا جزعا عليه
 آفجه بالشباب ولا أعزى؟
 تفرقنا على كره جميعاً
 وكانت أيكى ليد اجتناء
 أيا برد الشباب لكنت عندى
 بليت على لازمان وكل برد
 وعز على أن تبلى وأبقى
 لبستك برهة لبس ابتذال
 ولو ملكت صونك فاعلمنه
 ترقرقه الصبا مثل السراب
 كأن ترابها ذفر الملاب
 قرأت بها سطوراً فى كتاب
 رسيس المس لاغبه الركاب
 على زهر الربا كل انسحاب
 كربا المسك ضوع بانتهاء
 وسجع حمامة وحنين ناب
 ويا حزنًا إلى يوم الحساب
 لقد غفل المعزى من مصابى
 ولم يك عن قلى طول اصطحاب
 فعادت بعده ليد احتطاب
 من الحسنات والقسم الرغاب
 فسبين بلى وبين يد استلاب
 ولكن الحوادث لا تحسابى
 على علمى بفضلك فى الثياب
 لصنتك فى الحرير من العتاب

وهذا حنين إلى الطبيعة وشبابها وحنين إلى العمر وسبابه لا تدرى أين
 تبدئ أحدهما وأين ينتهى الآخر. فهما حنين واحد وشباب واحد وفاكهة
 واحدة وروضة واحدة. وإنك لتذوق الفاكهة فتذوق فيها طعم الشفاء والحدود
 وتحذ فيها مس الضفائر والنهود وتجمع فيها بين وليمة الحب ووليمة البستان
 بعد أن تسمعه يقول:

متع الطّبي من جنى غصنك اللد
من عناقيده وتفاحه الغض
ن يمتعك منه قبل انخضاده
ورمائه ومن فرصاده
أو بعد ان تسمعه يقول:

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان
وفوق ذينك أعناب مهدلة
فيهن نوعان: تفاح ورمان
سود لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عنك تلوح به
أطرافهن قلوب القوم قنوان
غصون بان عليهان الدهر فاكهة
وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات سارى الطل يضربه
وأقحوان منير النور ربان
الفن من كل شيء طيب حسن
فهن فاكهة شتى وريحان
فلا افتراق عنده بين الطبيعة والشعور، يكاد لا ينظر إلى الحسان ألا
تذكر الروضة والبستان، أو يكاد لا ينظر إلى الروضة والبستان إلا بنظرة تثير
الرغبة وتوقظ الأشجان . .

ولو كان للطبيعة فى بلاد العراق ظواهر أخرى غير هذه الظواهر التى
توزع وصفها فى قصائده ومقطوعاته لقرأت له فى تلك الظواهر الأخرى
وصفاً على هذا الأسلوب يحييها ويناجيها ويلهمها القول والعمل ويزودها
بالسير والأحاديث، كما ترى فى الأساطير المروية عن بلاد الرعود والبراكين
والمغاور والآجام. لأننا لا نحسب هذه القريحة قادرة على أن تتخيل شيئاً من
الأشياء بغير حياة، ولا على أن تفصل بين عالم الطبيعة وعالم الحياة فى أى
البلاد.

التشخيص والتصوير

والقريحة المطبوعة على إعطاء الحياة مطبوعة كذلك على إعطاء
الشخوص، أو على ملكة التشخيص.

ولكننا نحب أن نستثنى هنا ذلك التشخيص الذى تلجئ إليه ضرورة اللغة وتسهيل التعبير مع علم المتكلم بما فى كلامه من المجاز والمفارقة. فقد يتكلم الشاعر أو غير الشاعر عن الشمس بضمير المؤنث، وعن القمر بضمير المذكر، وقد يسند إليهما فعال الأحياء العاقلة وغير العاقلة، ولكنه بعد تعبير لفظى ليس وراءه تصور وليس وراء التصور - إن كان - أثر من الشعور، ولا سيما الشعور المتبادل بين طرفين متعاطفين.

وإنما المقصود بالتشخيص تلك الملكة الخالقة التى تستمد قدرتها من سعة الشعور حيناً أو من دقة الشعور حيناً آخر، فالشعور الواسع هو الذى يستوعب كل ما فى الأرضين والسموات من الأجسام والمعانى، فإذا هى حية كلها لأنها جزء من تلك الحياة المستوعبة الشاملة، والشعور الدقيق هو الذى يتأثر بكل مؤثر، ويهتز لكل هامة ولا ماسة فيستبعد جد الاستبعاد أن تؤثر فيه الأشياء ذلك التأثير وتوقظه تلك اليقظة وهى هامة جامدة صفر من العاطفة خلو من الإرادة، وهذا الشعور الدقيق هو شعور ابن الرومى بكل ما حوله، وسبب ما عنده من قدرة الأحياء وقدرة التشخيص: قدرة التشخيص التى هى ملكة مقصودة تكون عند أناس ولا تكون عند آخرين، وليست قدرة التشخيص التى هى حيلة لفظية تلجئنا إليها لوازم التعبير ويوحىها إلينا تداعى الفكر وتسفل الخواطر.

خذ مثلاً للمعانى "التشخيصية" التى يأتى بها اللفظ والمعانى التشخيصية التى أتى بها الشعور من أبيات ابن الرومى فى مشهد الشمس ساعة الغروب.

فقد ينظر بعض الشعراء إلى الشمس فى هذا المشهد فيجعلها حسناء مفارقة، وما دامت حسناء مفارقة فهى معشوقة أو عاشقة، وما دامت معشوقة أو عاشقة فهناك قصة غرام تدور على هذا المعنى إلى حيث ينتهى بها المطاف، وكل هذا لأن الشمس مؤنثة فى اللغة العربية وحسناً فى تشبيهات الشعراء!

فهي قصة مولدة من لفظ عرضي قد يكون لها نصيب من الشعور، وقد لا يكون لها أقل نصيب، أما الشيء الذي لا يمكن أن يخلقه اللفظ ولا التشبيهات ولا تسلسل الخطوط فهو الشعور العميق بوحشة الغروب وما ينكس من ذلك الشعور العميق على الشمس من ترنيق وضراعة وانكسار ونظر بائس كنظر المريض إلى العواد ووجوم شائع بينها وبين عيون النور التي تغرورق على الأغصان لتدمع وتلاحظ الحاظاً خشعا من الشجو والإغضاء. فلا بد إذن من شعور يسبق التشخيص ويلقى عليه ظله ويبث فيه من حياته، وأيا كان لفظ المشس من التأنيث أو التذكير وأيا كان موقعها من تشبيهات الشعراء، فإن هذا الشعور لا يتغير ولا يضعف ولا يزول.

هذا الشعور هو الذي يسبق كل تشخيص لابن الرومي أو كل "صورة مشخصة" في شعره، سواء تلکم عن بلد أو يوم أو خليفة أو فترة من العمر أو معنى محسوس أو غير محسوس.

فأنت تستخرج من بغداد "صورة مشخصة" حين يقول عنها:

بلد صحب به التشيية والصبا ولبست ثوب العمر وهو جديد
فلإذا تمثل في الضمير رايته وعليه أغصان الشبَاب تميد
وأنت ترى للمهرجان والنيروز "شخصين" يشبان ويشيبان ويدينان
بالأديان ويحدوهما الشوق وتلوح عليهما الهية حين يلوحان لك في قوله:

شباب المهرجان لهوك فيه فغداً من غطارف الشبان
وكذاك النيروز رد عليه بك شرخ الشبَاب ذى الريعان
ولذكرك ذا وذاك جميعاً سنن الملك فى بنى ساسان
عمرًا برهة على دين كسرى وهما الآن بعده مسلمان

.....

فعلى منظريهما هيبة الع
 وأحبك حب مولى شكور
 كل يوم وليلة فرط شوق
 فبهذا وذاك حتى يجيئنا
 لو أصابا إلى الغلاط سبيلا
 أو يخلي عنان ذاك وهذا
 ولودا إذا همابك حلا
 عنك لولا الإزعاج يرتحلان
 حزناً سائقيه أى حران

ولهنوات النفوس "شخوص" عنده يخاطبها وتخاطبه ويعتب عليها
 وتعتب عليه وتسمع بينه وبينها هذا الحوار:

ليتنى ما هتكت عنكن سترًا
 قلن: لولا انكشافنا ما تجلت
 قلت: أعجب بكن من كاسفات
 قد أفدتنى مع الخبر بالصبا
 قلن: أعجب بمهتد يتمنى
 إلى آخر ذلك الحوار:

والشباب روح أو ملك يعيش كما يعيش الرجل وزميله من ألحان فى
 بعض الأساطير

أخى والفى وتربى كان مولدنا معاً وربتنى الأيام حيث ربا

والود كائن حى يعاجله القتل أو يترك إلى الهرم فيموت:

أمت وديك عبطة فمه دعه على رسله يمت هرما

والعوسج شرير "ملعون" يهجى ويسخر منه ويقال فيه:

عذرنا النخل فى إبداء شوك يذود به الأنامل عن جناه

فما للعوسج الملعون أيدى لنا شوگًا بلا ثمر نراه

تراه ظن فيه جنى كريمًا فأظهر عدة تحمى ثمر نراه!؟

فلا يتسلحن للدفع كف، كفاه لؤم مجناه كفاه!

وإذا كانت هذه قدرة ابن الرومى على خلق الأشكال للمعانى المجردة أو

خلق الرموز لبعض الأشكال المحسوسة فإن القدرة التى سبق بها الشعراء فى

الأمم كافة بغير شك ولا تردد هى قدرته البالغة على نقل الأشكال الموجودة

كما تقطع فى الحس والشعور والخيال. أو هى قدرته على التصوير المطبوع،

لأن هذا فى الحقيقة هو فن التصوير كما يتاح لأنبغ نوابغ المصورين. فلست

أعرف فيمن قرأت لهم من مشاركة ومغارية أو يونان أقدمين وأوريين محدثين

شاعراً واحداً له من الملكة المطبوعة فى التصوير مثل ما كان لابن الرومى فى

كل شعر قاله مشبهاً أو حاكياً على قصد منه أو على غير قصد، لأنه مصور

بالفطرة المهيأة لهذه الصناعة فلا ينظر ولا يلتفت إلا تنبهت فيه الملكة الحاضرة

أبدأ وأخذت فى العمل موفقة مجيدة سواء ظهر أو سها عنها كما قد يسهو

المصور وهو عامل فى بعض الأحيان.

إنما التصوير لون وشكل ومعنى وحركة، وقد تكون الحركة أصعب ما

فيه لأن تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر ولا يتوقف على ما يراه بعينه ويدركه

بظاهر حسه. ولكن تمثيل هذه الحركة المستصعبة كان أسهل شئ على ابن

الرومى وأطوعه وأجراه مع ما يريد من جد أو هزل وحزن أو سرور، وقد مر

بك وصفه لمشيته التى " يغربل فيها " وللأحذب الذى شبهه بالمصفوع وهو
يتجمع ويتهاى للصفع ويخشاه! فأضف إليه هنا وصفه لحركة الكتان فى حقله:

وجلس من الكتان أخضر ناعم توسنه دانى الرباب مطير
إذا درجت فيه الشمال تتابعت ذوائبه حتى يقال غدير
ووصفه لحركة الرقاق فى يد الصانع:

ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر
ووصفه للقمر فى سريانه:

وأسفر القمر السارى فصفحته ربا لها من صفاء الجو لالاء
ووصفه لحركة الرى فى النبات:

ويحور الخريف وهو ربيع وتسور المياه فى العيدان
ووصفه للحركة البطيئة فى سير السحائب:

سحائب قست بالبلاد فألقيت غطاء على أغوارها ونجودها
حدثها النعامى مثقلات، فأقبلت تهادى، رويداً، سيرها كركودها

فإنك تقرأ هذه الأبيات وأمثالها عما سبق أو لم يسبق فى هذا الكتاب
فيروعك منها - أول ما يروغ - صدق تمثيلها للحركة فى الجملة والتفصيل.
فليس أصدق من وصف ذائب الكتان بالغدير وهى تتلاحق مع الريح، ثم
يتم تصوير الحركة هنا تصوير اللون الأخضر واللمس الناعم والغيم الذى
يسرى على جلس الكتان مع الليل فى وقت الوسن ويسف بحواشيه المطيرة
إلى الأرض البليل. فالصورة كاملة لا تنقص منها سمة من مسات المكان
والزمان والحركة ولا حظ من حظوظ العين واللمس والخيال، ومثلها صورة
الرقاق وهى تكبر فى لمح البصر كما "تنداح" الدوائر فى صفحة الماء، ومثلها

صورة الليلة القمرء وهى كاملة متحركة من بداية الأسفار إلى السريان إلى الصفحة الريا التى تطالعك بالامتلاء والنداءة إلى الصفاء المحيط بكل هذا فالألواء المشرق على ذلك الصفاء. ليس فى البيت كلمة واحدة إلا لها مكانها من الصورة ونصبيها من التلوين والتمثيل والتبيين، ومثل ذلك المياه التى تسور فى العيدان كأن لها وجيئاً أو ديبياً يتبعه الناظر بعينه ويصغى عليه بأذنه، والسحاب التى لا تفرق بين حركتها وركودها لأنها أطبقت على أغوار البلاد ونجودها، وهات ما شئت من صور له فى وصف الإنسان والحيوان والنبات والجماد فإنك لتجدن فيها كلها مثل هذا الصدق ومثل هذه الحركة ومثل هذه الحياة. وقد يكون قولنا هذا من تحصيل الحاصل بعد ما سلف من بيان إحساسه باللون ويقظته لكل ما يراه أو يسمعه أو يلمسه أو يدركه من ظواهر الأجسام وبواطن العواطف والأخلاق، ولكنه تحصيل حاصل غير مألوف ولا مستغن عن بعض الإبانة وبعض التفصيل.

ولو كان ابن الرومى مصوراً لما استغرب منه هذا الولع بالألوان والظلال والأشكال والحركات. لأنه كان لا يستطيع إذن أن يشرع فى عمله قبل أن يلتفت إلى عناصر الصورة المحسوسة ويجعلها فى روعة ويهئها للظهور على قرطاسه. أما الشاعر فلا ضرورة فى نظم الشعر تقسره على أن يلتفت هذا الالتفات الدقيق إلى كل لحظة من لمحات اللون والظل وكل صغيرة من صفائر الشكل والحركة. فإذا التفت إلى ذلك فى عامة شعره بغير ضرورة قاسرة ولا طريقة مسبقة فإنما يلتفت إليه لأنه مطبوع على التصوير ينظر إلى ما حوله فينتطب ما يراه فى حسه وإن دق وخفى - كما ينتطب النور البعيد الضئيل فى مصور الفلكى المحكم التركيب:

وبودنا أن نثبت الآن قصيدة "المهرجان" النونية برمتها لأنها نموذج واف لشعر ابن الرومى فى هذا الباب، ولكننا نجتزئ منها بما يأتى وفيه الدلالة الكافية على هذه الملكة النادرة. قال:

كل يمن على الأمير الهجان	يمن الله طلعة المهرجان
.....	
كيف شاءت مخيرات الأمانى	مهرجان كأنما صورته
.....	
من جميع الهموم والأحزان	وأدبل السرور واللهو فيه
يا وزاقت فى منظر فتان	ليست فيه حفل ريتها الدن
كان قدمًا تصونه فى الصوان	وأذالت من وشيها كل برد
رادع الحبيب عاطل الأبدان	وتبدت مثل الهدى تهادى
هى فى عفة الحصان الرزان	فهى فى زينة البغى ولكن
سر بطانها إلى الظهران	كادت الأرض يوم ذلك تفشى
.....	
ناعمات الشكير ^(١) والافتان	وتعود الرياض مقتبلات
.....	
جد موطوءة من الضيفان	زخرفت يوم نعمه حجرات
.....	
من فصول المعروف إكرام بان	حجرات ميممات بناها
يتقن المجد أيما إتقان	لم يكن يفتنى المساكن حتى
قائمات بزينة المزدان	فأذيلت فيها تهاول رقم
ل عظيم فى قومه مرزبان	ثم قام الكماة صفن من ك
وعلى سيفه هنالك حان	كلهم مطرق إلى الأرض مغض

(١) الشكيرك النبت الصغير.

وتجلى على السرير جبين
يمكن العين لمحة ثم ينهى
فله منه حاجب قد حماء
فاستوى فوق عرشه بوقار
ثم قام المجدون مثولا
ليس من كبرياء فيه ولكن
فتشوا سؤدد الأمير وعدوا
حين لم يجشموا التزيد لا بل

.....

فقضوا من مقالهم ما قضوه
بعد ما ارتعوا الأنامل فيما
من خـوان كأنه قطع الرو
فوقه الطير فى الصحف وحاشى

.....

ثم سام الأمير سوم الملاهى

.....

وقيان كأنها أمهات
مطفلات وما حملن جنينا
ملقـمات أطفالهن ذيا
مفعمات كأنها حافلات

ذو شعاع يحول دون العيان
طرفها عن إدامه اللحظان
كل عين ترومه بامتهان
وبحلم من الحلوم الرزان
ضاربين الصدور بالأذقان
كل وجه لذلك الوجه عان
فيه آلاء بكل لسان
ما تعدوا ما حصل الكاتبان

.....

ثم أبو بالرقد والحمدلان
لا تعدوا شهوة الشهوان
ض وإن كان فى مثال خوان
ذلك الطير من جفاء الجفان

.....

وخلا بالمدام والندمان

.....

عاطفات على بنيتها خوان
مرصعات ولسن ذات لبان
ناهدات كأحسن الرمان
وهى صفر من درة الألبان

كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكمران
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادى الغنى عن الترجمان

أوتى الحكم والبيان صبيا مثل عيسى بن مريم ذى الحنان

لو تسلى به حليثه لشفى داء صدرها الحران
عجا منه كيف يسلى ويلهى مع تهيجه على الأشجان

فترى فى الذى يصيخ إليه أمرات المحزون والجذلان

فتأمل فهل ترى فى وسع المصور القدير ان يلتفت إلى لون أو ظل أو شكل أو خط أو حركة فى المهرجان لم يتلفت إليها ابن الرومى فى هذه القصيدة؟ وتأمل الشاعر هل تراه فى قصيدته إلا كما قلنا فى بعض مقالاتنا: "كالرسام الذى بسط أمامه لوحته وأقبل على الوجوه والأشكال يتفرسها ويطيل النظر إلى ملامحها وإشارات ما تشف عنه من المعانى، وتشير إليه من الدلائل ويراقبها فى التفاتاتها ومواقفها وحركاتها لينثنى بعد ذلك إلى لوحته فثبت عليها ما توارد على بصره وقريحته من الألوان والمعارف والهيئات من حيث هى تحفة فنية تستهوى الحواس والأذواق؟ فهو يبدأ برسم زينة المهرجان واختيال الدنيا بمنظرها فيه وبرود الوشى التى أذلتها للناظرين، واللهم والسرور الذى شمل كل شئ وأدبل له من جميع الهموم والأحزان، ثم يرسم حجرات الأمير بزخارفها وتهاويلها وضيوفها الغادين إليها الرائحين منها، وقيام الكماة صفا بعد صف مطرقين إلى الأرض مغضين بالابصار حانين على السيوف، ثم يرسم الأمير فوق سريره، وقد طلع على الجميع بوجه مهيب يمكن العين منه لحظة ثم ينهاها عن إدامة اللحظات، ثم يذكر

لك وقار الإمارة وسمات الحلم والرزانة بين قوم يعنون له ويجلون قدره من الحب والتبجيل لا من الصلف والكبرياء، ثم يرسم المادحين بين يديه يرتلون عليه الثناء ضاربين الصدور بالأذقان وينصرفون من حضرته بالعطايا والحملان، بعد ما شبعوا من خوان يلوح فى مثل قطع الروض وإن سمي بالخوان، ثم يرسم القيان الكواعب الأبنكار عاطفات على المزاهر عطف الأم على الرضيع بنهود مفعمات، ولكنها صفر من درة الألبان، ثم يرسم أثر الغناء على وجوه السامعين، فإذا هو شجن وسلوى وأمرات من الحزن والجذل وطرب يشوبه السكون وسكون يشوبه الطرب. فلا تزال فى القصيدة تنتقل بين أبياتها من صورة إلى صورة ومن منظر إلى منظر ومن حركة إلى حركة حتى تأتى عليها وقد استعرضت فى خيالك متحفاً واسعاً من الأشكال والخطوط عملت فيه القريحة والنظر واشترك فيه الفن والإحساس وروى لك أصدق الرواية عن عين تلمح وتعى ونفس تحس فتستوعب وخيال يدخر الجمال المنظور فيثرى بالألوان والسمات ..

زعموا أن بعضهم قال لابن الرومى: "لم لا تشبه كتشبهات ابن المعتز وأنت أشعر منه؟ فقال للأئمة: أنشدنى شيئاً من قوله الذى استعجزتنى عن مثله، فأنشده قوله فى الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال: زدنى .. فأنشده قوله فى الأذريون وهو زهر أصفر فى وسطه
خمل أسود.

كان أذريونها والشمس فيه كالية

مسداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاه! تالله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

ذاك إنما يصف ماعون بيته وأنا أى شىء أصف! ولكن انظروا إذا
وصفت ما أعرف أين يقع قولى من الناس إلى آخر القصة.

وقد تصح هذه القصة أو لا تصح، ولكنها على الحالتين تدل على رأى شائع فى التشبيه بين الذين كانوا يتعاطون الأدب فى عصر ابن الرومى وبين الذين يتعاطونه فى هذه الأيام. فلا بد المعتر تشبيهات كثيرة أبلغ من هذه التى مرت فى القصة وأجمل وأنقى فى المعنى والديباجة، ولكنهم لا يختارون له فى مقام التحدى والتعجيز إلا هذه الأبيات وأمثالها، لظنهم أن نفاسة التشبيه إنما تقاس بنفاسة المشبه به وأن الغرض من التشبيه إنما هو مضاهاة أبيض على أبيض وأصفر على أصفر ومستدير على مستدير ومستطيل على مستطيل مما يرى بالعين ولا فضل فيه للشعور والتخيل، فالشاعر الذى يصف النجوم ويشبهها بالجواهر والحلى هو الشاعر غير مدافع وهو المثل الأعلى فى هذه الصناعة . . ثم يليه الشعراء على حسب الأسعار فى سوق المشبهات! وقصارى ما يطلبه الشاعر من التشبيه أن يثبت لك أنه رأى شيئين من لون واحد وشكل واحد كأنك فى حاجة إلى مثل ذلك الإثبات الذى لا طائل تحته، فأما أنه أحس وتخيل وصور إحساسه، وتخيله باللفظ المبين والخواطر الذهنية الواضحة، فليس ذلك من شأنه ولا هو مما يدخل عنده فى باب البلاغة والشاعرية، وهذا خطأ بعيد فى فهم الوصف والشعر يخرج عن القدرة النفسية إلى القدرة الآلية التى تحكى المناظر الظاهرة كما تحكىها المصورة الشمسية. فالمسافة عظيمة جداً بين شاعر يصف لك ما رآه كما قد تراه المرأة أو المصورة الشمسية، وشاعر يصف لك ما رآه وشعر به وتخيله وأجاله فى روعة وجعله جزءاً من حياته، وليس يعينك أنت أن يكون الشاعر صحيح العين مطلعاً على المراتب المتشابهة ليتصل ما بينك وبينه ويقرب وجدانك من وجدانه، ولكنما يعينك منه أن يكون إنساناً "حيّاً" يشعر بالدينا، ويزيد حظك من الشعور بها، وتلك هى مزية ابن الرمى فى وصفه وتشبيهه ومزيته فى شعره كله من أوائل شبابه إلى اليوم الذى مات فيه. وينبغى هنا أن نذكر مرة أخرى أن ملكة الشعر غير ملكة الوصف وليستا بشيء واحد كما يفهم

كثير من القراء، فمن وصف وشبه ولم يشعر فليس بشاعر .. ومن شعر وأبلغك ما فى نفسه بغير وصف مشبه فلا حاجة به إذن إلى سرد الصفات لتتم له ملكة الشاعرية . . .

من ثم نقول أننا إذا قسمنا العبقریات الفنية إلى أقسام وفصائل فخير ما نفهم به عبقرية ابن الرومى أنها عبقرية يونانية على المعنى المفهوم بين قراء الآداب من هذه الكلمة، إذ لا نعرف صفة لعبقرية ابن الرومى هى أوجز ولا أبين من هذه الصفة المجموعة فى كلمة واحدة: فإنه كان محباً للحياة فى خفة وطفولة وأريحية دائمة كالحب الذى عهدناه فى جملة الفنون اليونانية، وكان مشخصاً لمحاسن الطبيعة وعناصرها كما شخصتها أساطير اليونان وولدت منها بنات الماء وعرائس الغاب وأرباب السحب والبحار وغيرها من ولائد الذوق والخيال، وكان مأخوذاً بالجمال فى كل شىء كما أخذوا به فى كل شىء، مستغرقاً فى الحس الدنيوى كما استغرقوا فيه. أما أنه كان كذلك لأنه من سلالة اليونان فذلك قول لا نجزم به ولا نجزم بنفيه، لأنه يستطيع أن يكون كذلك ولم لم يكن من تلك السلالة التى اختلطت فيها سلالات الشرق والغرب والشمال والجنوب، فما اختص اليونان بإبداع الفنون واستجلاء الجمال، ولا يحسن بأحد أن يدعى ذلك لشعب من الشعوب. وكل ما امتازوا به على غيرهم أنهم منحوا الفنون حرية لم تمنحها فى الشعوب القوية الى توطدت فيها الدولة وتوطد فيها الدين فاشتمل على العلوم والفنون وأحاطها بقيود المراسم والموروثات، فلما خضع اليونان لمثل هذا السلطان نضب فيهم ذلك المعين الحر وأخلدوا إلى المراسم والموروثات إلا قليلاً من الحنين المتجدد إلى الفن القديم، وامتياز اليونان بالحرية فى الفن فضل عظيم جليل ولكن ما مقدار ما يسرى منه فى الدم ويثبت مع الغرائز وينتقل مع السلالات؟؟ وما هو الحد الفارق بين اليونانية وغير اليونانية فى الشعوب الكثيرة التى يتناولها اسم اليونان فى آسيا وأوروبا وقبل التاريخ وبعد التاريخ؟ .. فأنت ترى أن القول

بالوراثة اليونانية فى ابن الرومى ليس أسهل ولا أصوب من القول بانفراد هذه الظاهرة الغربية التى لا تزول غرابتها من بعض الوجوه حتى لو ظهرت فى بلاد اليونان. وقد يكون فيما مـر بك من شرح مزاجه ونشأته تعليل صالح لهذا الإحساس المتوفز يساعده على تفسيره بعض التفسير، فحسبنا إذن من كلمة العبقرية اليونانية أنها كلمة مفهومة فى لغة الآداب وإن لم تكن مفهومة فى لغة الأنساب.

